

د. عيسى شاغة / جهود علماء المدرسة المغربية في تيسير النحو العربي

جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة
كلية الآداب واللغات

مخبر دراسة نظرية وتطبيقية معمقة لتطبيق النظام التعليمي الجديد LMD في الجامعة
الجزائرية بهدف تكوين أقطاب جامعية تنموية مندمجة بجامعة البويرة

اليوم الدراسي: تيسير النحو العربي في العصر الحديث واقع وآفاق
يوم 07 - 03 - 2018

عنوان المداخلة:

" جهود علماء المدرسة المغربية في تيسير النحو العربي "

الدكتور: عيسى شاغة
جامعة البويرة

مقدمة.

نشأ النحو ونما وازدهر في المشرق العربي، وكثر طلابه هناك ومريدوه وعلماءه، وكان لهم فضل كبير في جمع مادته الأساسية، وصياغة نظريته وأصوله وقواعده، بحكم توفر المادة اللغوية الفصيحة والمتكلمين العرب الأقحاح. ومع ذلك لم يبق النحو مشرقيا، ولا اقتصر تعلمه والنبوغ فيه على المشاركة، بل كان للمغاربة حظ أوفر في تعلمه وتعليمه بل وبلوغ الإمامة فيه.

وقد توسعت الحركة النحوية في المغرب والأندلس ونضجت أفكارها وكثرت مؤلفاتها حتى شكلت مدرسة نحوية قائمة بذاتها، أطلق عليها بعض الدارسين اسم "المدرسة المغربية أو المغربية". وهي مدرسة لا تقل شأوا عن نظيراتها من المدارس النحوية في المشرق العربي كالمدرسة البصرية والكوفية والبغدادية والمصرية.

والعلماء المغاربة اشتهروا بوضع مختصرات للمطولات من كتب اللغة والنحو، وتأليف الكتب المستقلة في النحو والصرف، ووضع شروح لبعض كتب النحو، ووضع تعليقات على كتب السابقين، ونظم قواعد النحو في قصائد وأراجيز لتسهيل حفظها واسترجاعها، ولعل أشهرها ألفية ابن معط.

وفي هذا السياق جاءت هذه المداخلة لتسلط النور على أهم جهود علماء المدرسة

المغربية في تيسير النحو العربي وتعليمه للناشئة، وكذا جهودهم في تأليف الكتب النحوية
التعليمية المبسطة.

1/ المدرسة المغربية.

المدرسة مصطلح يطلق على جماعة من الدارسين أو الباحثين الذين يشتركون في وجهة
النظر، ويجمعهم منهج علمي واحد، ويصل بينهم رباط من وحدة الفكر، وهم في العادة يتفقون
على الأصول لا على الفروع، ولا يشترط فيهم التواجد في مكان واحد أو زمان واحد.

والمدرسة المغربية أو المغربية تشمل عند بعض الدارسين النشاط النحوي الذي عرفه
الغرب الإسلامي الذي يشمل شمال إفريقيا وبلاد الأندلس، ويقصرها بعضهم على ما شهدته
أقطار المغرب العربي من حركة نحوية كان مسرحها حواضر العلم ورباطاته في هذه الأقطار من
القيروان وبجاية وتلمسان وفاس ومكناس وبلاد شنقيط وغيرها.

وهناك من ينفي أصلا وجود مدرسة مغربية بالمعنى الاصطلاحي للمدرسة، وبرى أن هذه
التسمية لها علاقة فقط بمولد بعض النحاة ونشأتهم في بلدان المغرب أو إقامتهم بها، وفي هذا
يقول صالح بلعيد: "من الصعوبة أن نقرّ بأن هناك مدرسة مغربية محضة، ونشفي غليل
القارئ المتخصص عند الحديث عن هذه المدرسة، ولكن ما يمكن أن نصل إليه أن هناك نحاة
مغاربة بحكم المولد والترحال"⁽¹⁾ هؤلاء النحاة وصفتهم خديجة الحديثي بقولها: "هم إلى المؤدبين
أقرب منهم إلى علماء النحو، ولم ينشأ مع هذا نحوهم من بيتهم، وإنما جاء من بيئات النحوي
المشرق العربي"⁽²⁾.

ومع ذلك نقول: إن مصطلح المدرسة حديث الاستعمال في الثقافة اللغوية العربية،
وحدوده غير واضحة المعالم عند كثير من الدارسين العرب المحدثين، فهم أصلا يختلفون في
عدد المدارس النحوية، حيث يعدها بعضهم مدرستين لا ثالث لهما، وبعضهم الآخر يجعلها ثلاث
مدارس، ومنهم من يوسعها إلى خمس مدارس.⁽³⁾

ثم إن الواقع يثبت أن هناك حركة نحوية واسعة و متميزة في منطقة المغرب العربي،
وسواء أسُميت اتجاهها مغاربية أم سميت مدرسة مغربية، فحضورها يفرض نفسه في الدرس
اللغوي العربي، وقد تغذت بأفكار أقطاب من النحاة الذين ذاع صيتهم بين أهل العلم قديما

وحديثاً، وأتخذت مؤلفاتهم مقررات دراسية في المشرق والمغرب، وكان منهجهم التعليمي متميزاً أسهم بشكل كبير في توسيع تعليم النحو العربي، وتدعمت هذه المدرسة أكثر بهجرة علماء الأندلس إلى بلدان المغرب العربي بعد سقوط غرناطة، فالتف حولهم طلاب العلم من كل الأنحاء ينهلون مما عندهم من علوم اللغة. فلا مجال إذن لنكران هذا الاتجاه أو المدرسة أو المذهب.

2/ التآليف النحوي الميسر.

يقول حاجي خليفة في (كشف الظنون): "إن التآليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي: إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه".⁽⁴⁾

ولذلك لم تكن مؤلفات المغاربة لتخرج عن هذه المواصفات التي ذكرها حاجي خليفة، لكنهم اختاروا من بين أنواع التآليف ما يكون سهلاً ميسراً على طلاب العلم ومريديهم، فيوصلهم إلى الغاية من أقرب طريق، وتجنبوا ما وقع فيه بعض النحاة المشاركة الذين كان بعضهم يتعمد الغموض والإبهام في كتبه لحاجة في نفسه، فقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أنه قال للأخفش ذات يوم: "أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبني هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجاتهم إليّ فيها، وإنما كانت غايي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنتُ إلى التمسك قصدت".⁽⁵⁾

أما علماء المغرب فقد أحسوا بالحاجة إلى التآليف الميسر في النحو بعد أن تعالت الأصوات منادية إلى ضرورة الاتجاه بهذا العلم نحو السهولة والتيسير، ولعل السبب الذي دعاهم إلى تبني منهج التيسير في النحو تأليفاً وتعليماً هو كون أقطار المغرب ذات أصول بربرية، لا يعرف سكانها البربر العربية وعلومها، ولا يتقنها العرب الذين خالطوهم مثلما يتقنها عرب المشرق، مما يحتم على من تخصص في هذه العلوم وتصدر لتعليمها سلوك سبيل البساطة والسهولة حتى يستوعبوا عنه، وقد تجلّى هذا التيسير في المتون النحوية وشروحها ومختصراتها

والتعليقات والجواشي عليها، وهو نمط من التأليف اشتهر به المغاربة وتفوقوا فيه عن نظرائهم في المشرق العربي.

والمقصود ههنا بالمتون النحوية كل ما ألف مختصرا في النحو منظوما أو منثورا لغرض تعليمي، حتى يسهل حفظه وتذكره واسترجاعه عند الحاجة، والمنظوم من المتون أكثر انتشارا وشهرة بين طلبة العلم من المنثور، لسهولة حفظه واسترجاعه لأنه يقوم على الوزن العروضي الموسيقي، والنفس كما هو معلوم تُقبل على كل ما كان فيه انتظام وتحفظه.

والمتن المنظوم يختلف عن المتن المنثور من حيث اتسامه بالاختصار وإيجاز العبارة، وبروز التلميح بدلا من التصريح؛ نظرا لما تستلزمه الأوزان الشعرية من حاجة إلى التقديم والتأخير والحذف ونحو ذلك، فهو يقتضي من الدارس وبخاصة إذا كان يدرس منظومةً موضوعة لغير المبتدئين أن يبذل المزيد من الجهد؛ من أجل أن يدرك ما يتضمنه هذا النظم من الإشارات، ولن يتمكن من بذل الجهد الزائد في تعلم النحو إلا من كان لديه إلمام جيد بالنحو وثقافة حسنة فيه، فهذا يصبح النظم وسيلة فعّالة في زيادة الحصيلة العلمية لدى المتعلم، مما ينتج عنه رفع المستوى الثقافي للأمة ونشاط الحركة العلمية فيها.⁽⁶⁾

وقد كان مصنفو المتون في القرون الأولى يجعلونها في قالب نثري، ثم بعد ذلك فطن النحاة إلى أنه بالإمكان توظيف نظم الشعر وإيقاعاته في صياغة منظومات نحوية تُسهّم في تسهيل تعلّمه، وتيسير حفظ قواعده بسرعة؛ لأن الشعر كما هو معروف أسهل حفظا من النثر، فتوالت جهودهم في هذا المجال، وكان القرن السادس وما بعده هو عصر انتشار المنظومات، فبرزت فيه المنظومات الطويلة التي تبلغ ألف بيت أو أكثر، والتي تتسم بجمع شتات العلم الذي نُظمت فيه إضافة إلى أصوله وكثير من فروعها.⁽⁷⁾

وتظهر سهولة ويسر هذه المتون من ناحيتين: المحتوى، وطريقة ترتيبه:

أما المحتوى فنلاحظ أن معظم المتون النحوية اتسمت بالشمول والاختصار، فقد اختصرت القواعد النحوية بخلوّها من الحشو كالتعريفات وبعض الأبواب التي لا تهم المتعلم مع شمولها لمعظم أبواب النحو ومسائله، وهذا يختصر على المتعلّم الوقت ويزيد في استيعابه، وبخاصة أن القواعد النحوية متسمة بالطابع التعليمي النابع من نهج النحو المعياري الذي يتسم بالتسلسل المنطقي ولا يدع ذهن المتعلّم يتشتت بكثرة الأحكام التي يتعلمها.

وأما الترتيب فنلاحظ أن أغلب المصنفين بنوا متونهم على نظرية العامل، إما العامل نفسه كما فعل ابن مالك، وإما المعمولات التي هي أثر للعامل كما فعل ابن الحاجب ومن نظم المفصل أو الكافية. وهذه النظرية تعليمية مناسبة للفكر؛ لما فيها من ترابط المسائل في الأبواب، وهذا يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا.⁽⁸⁾

وكان من مظاهر تيسير النحو أيضا أن المقدمات النحوية المنثورة التي وضعت لتعليم المبتدئين لقيت عناية فائقة من الناظرين، فحوّلوها إلى منظومات نحوية وسلكوا في ذلك سبيل التيسير، حتى صارت توازي في شهرتها أصولها النثرية، ويأتي في مقدمتها متن الأجرومية.

حيث ألف العالم المغربي أبو عبد الله محمد بن داوود الصنهاجي الفاسي النحوي المقرئ المعروف بابن أجروم مقدمة صغيرة لا تتجاوز العشرين صفحة، ولكن كتب لها أن تنال من الشهرة والذيع ما نالته ألفية ابن مالك، ولم تكن الأجرومية منافسة لألفية ابن مالك، وإنما كانت بمثابة ابنة لها تسير إلى جنبها، كانت البنت تتحدث إلى الصغار في الكتابات وتعين المربين على تعليم الناشئة وصغار العلم، وبعد مرحلة الكتاب فما عليهم إلا أن يتابعوا دراسة النحو في الألفية، وإذا ما سلكوا طريقا آخر فإن الأجرومية قدمت من هذا الفن ما لا يسع جهله، لأنها شملت ما يعرف من النحو ضرورة لجميع الدارسين.⁽⁹⁾

ولم تبرز مقدمة ابن أجروم إلى الوجود حتى صارت هي الكتاب المدرسي الأول في المرحلة الابتدائية، وبذلك حلت محل المقدمات التي في مستواها، مثل الأنموذج للزمخشري وملحة الحريري وملع ابن جني، شأنها في ذلك شأن ألفية ابن مالك التي نسخت جمل الزجاجي وإيضاح أبي علي الفارسي، ثم صارت أساسا في المناهج التربوية تناولها العلماء بالشرح والنظم والتعليق.⁽¹⁰⁾

ويمكن القول إن هذه المقدمة قد عبرت عن مطالب المتعلم العربي لجملة من القواعد التداولية الخاصة بلغة الاستعمال. والظاهر أن الاختصار على تلك الأبواب النحوية كان مبنيا على رؤية تربوية خلاصتها التدرج في التلقين والانتقال من العام إلى الخاص وتبسيط القواعد جملة، حتى يتسنى للمتعلم الإمام بها، ثم تأتي مرحلة ثانية وهي شرحها واستثمارها.⁽¹¹⁾

وكانت الأجرومية هي ملح الطعام عند مدرسي وطلاب الجزائر، لأنها كانت تفرض على الطلاب من قبل المعلمين في المدارس والزوايا، حتى قال أحد علماء الجزائر في متن الأجرومية وفضل أولويتها في تعليم وتعلم النحو وعلوم العربية عموما:⁽¹²⁾

كل علم فانهض إليه ولكن
إنما النحو بابٌ كلِّ وهذا
فكأن الأستاذ حي يناجي
فاستنبروا بنوره واحفظوه
فإن من يحفظ المتون ويلقي
إنما العلم ما حفظت فصدق
خص نحوا بالبده والتقديم
باب المتن لابن أجروم
نا ويبيدي عجيبا من علوم
واكرعوا من رحيقه المختوم
أذن قلب لدرسه المحتوم
إن في المتن جاء بالتفهم

وقد ألفت الأجرومية بأسلوب سهل يسير بعيد عن الحشو والتعقيد، خال من
الاستشهادات والاقتياسات التي لا تناسب وعقول المبتدئين، وتضمنت أمثلة بسيطة قريبة من
الأفهام.

وبإطلالة بسيطة على محتوياتها تدرك أنها تعليمية تجنح نحو التسهيل والتبسيط لما فيها
من الاقتصار على الأبواب والأقسام الضرورية، مع حذف بقية الأبواب الصعبة التي قد تثقل
المقدمة ولا تفيد المتعلم بقدر ما ترهق فكره، ومن هنا جاءت المقدمة متميزة بميزات خاصة لم
تتوفر في غيرها من المتون النحوية وأهمها: (13)

✓ الاختصار الشديد في الأبواب مع إغفال بعضها، حيث خلت الأجرومية من المقدمة
والاستهلال، المصنف يبدأ مباشرة بالحديث عن الكلام وأقسامه، ثم يقسم قضايا النحو
على خمسة أبواب رئيسة هي: باب الإعراب، باب الأفعال، باب مرفوعات الأسماء، باب
منصوبات الأسماء، وباب مخفوقات الأسماء. وهذا تقسيم وظيفي لأبواب النحو.

✓ الاهتمام بالتقسيم وذكر الأنواع.

✓ عدم ذكر الخلافات النحوية بين النحاة.

✓ ذكر الراجح عنده دون التقيد بأحد المذاهب النحوية.

✓ الخلو من الاستشهاد بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الأمثال والأشعار.

✓ الخلو من التعليقات النحوية.

✓ استحضار الكلمات السهلة المتداولة بين طلبة العلم.

✓ الاقتصار في الاستشهاد على التمثيل بكلمات مفردة أو جمل قصيرة جدا.

كما التزم ابن أجروم في المقدمة المنهج الاختياري الانتقائي، الذي يقوم على المزج بين
مذاهب النحاة دون ميل أو تحيز، والتخير منها، والترجيح بينهما، ولذا جاءت المعارف النحوية في

المقدمة مزجاً بين مصطلحات المدرستين النحويتين البصرة والكوفة، كل هذا من أجل التبسيط والتسهيل على المتعلمين، وربما كان هذا هو السبب في انتشارها الواسع في العالم العربي والإسلامي على مر العصور.

وعلى العموم فإن مؤلفات المغاربة على اختلافها من متون منظومة أو منثورة أو كتب مختصرة أو شروح وحواشٍ وتعليقاتٍ تشترك في جملة من الخصائص التي جعلتها ميسرة تحظى بالقبول لدى طلاب العلم ومريديه، وأهم هذه الخصائص المشتركة:

❖ أساليبها علمية تقوم على الدقة والوضوح والتركيز والإيجاز في العبارة وترك فضول الكلام، والابتعاد عن الالتواء في طرح الأفكار والتفنن في العبارة. فسهولة لغة التأليف ميزة في مؤلفات المغاربة عموماً بحيث لا يجد قراءها صعوبة في فهم محتوياتها ومضامينها، لأنها مؤلفة في الغالب للمبتدئين في العلم، وهؤلاء ليسوا في حاجة إلى لغة سيبويه والمبرد وغيرهما.

❖ العناية بإعراب الأمثلة والشواهد والإكثار منه أثناء الشرح، وذلك لأن إعراب الألفاظ والجمل وسيلة من وسائل الشرح، توضح المعنى وتقربه، كما تجعل القارئ المبتدئ يتمرن على تحليل الكلام، وترسخ قدمه في علم النحو بعد أن يفهم القاعدة ويمارس التطبيق معاً.

❖ بروز النزعة التعليمية في مؤلفات المدرسة المغاربية، ومن مظاهرها الاكتفاء بما يحتاج إليه القارئ المبتدئ من قواعد أساسية عامة وتجنب الخوض في التفريعات التي تحتاج إلى مستوى أعلى لاستيعابها، مع توجيه المتعلم إلى الكتب التي تهتم بالتفصيلات والتفريعات إن أراد الاستزادة.

❖ مؤلفات المغاربة تتجنب الخوض في الخلافات النحوية والآراء المذهبية المختلفة، وتبتعد عن التأويلات والتفديرات والآراء الشاذة التي تتعب ذهن القارئ وتشوشه، فهي لا تتناول الخلاف إلا لما إذا دعت الحاجة إليه، ومن دون إطالة في الجدل والخلاف، فهي غالباً ما تكتفي بتقديم ما استقر عليه الدرس النحوي من حقائق، والتنبيه إلى الخلاف ليطلع عليه في كتب الخلاف من أراد أن يستزيد.

❖ ترتيب أبواب النحو ومسائله بطريقة تجعل القارئ يستوعب قضايا النحو بسهولة، فلا تختلط عليه المسائل وتتداخل.

❖ التقليل من الشواهد النحوية التي تحتاج إلى تمعن وتدبر لفهمها والاكتفاء غالباً بالأمثلة

البسيطة والوظيفية التي تظهر فيها القاعدة النحوية بسهولة تامة.

❖ قد تلجأ بعض المؤلفات إلى الاستطراد الهادف الذي تُقدم من خلاله فائدة علمية من دون الابتعاد كثيرا عن الموضوع الأصلي للشرح أو جعل الأمور تختلط على القارئ، ولهذا الأسلوب فائدة تعليمية عظيمة، حيث يتمكن المتعلم بفضلها من ربط الدروس بعضها ببعض، واستحضار معطيات نحوية أو لغوية ليفهم في ضوءها المسألة النحوية التي هو بصدد تعلمها.

3/ تيسير تعليم النحو في المدرسة المغربية.

لقد أدرك العلماء المغاربة وجود فرق جوهري بين النحو وتعليم النحو، ولهذا لجؤوا في القضاء على صعوبة النحو إلى تيسير تعليم النحو لا تيسير النحو، لأن الإشكالية ليست في أبواب النحو ولا في قضاياها، فمن الخطأ أن نعلم في تيسير النحو إلى حذف أبواب من النحو وتشويه قواعده الأساسية الموضوعية بحكمة ودراية.

فالإشكالية تكمن في تقديم النحو إلى المتعلمين على هيئته التي وضعها كبار النحويين من أمثال سيبويه والكسائي والمبرد، بخلافاته وتفريعاته التي لا يستوعبها إلا المتخصصون جدا فيه، وهذا خطأ جسيم ارتكبه بعض معلمي النحو، وقد انجر عنه نفور الطلاب من هذا العلم وتدميرهم منه.

وكان حريا بمن تصدى لتعليم النحو أو وضع برامجه التعليمية أن يجتهد في خلق طرق وأساليب مبسطة ومناسبة لعرضه على الطلاب والمبتدئين، وتبقى الخلافات والتفريعات مقتصرة على أهل الاختصاص أو الراغبين في مواصلة البحث في النحو.

وقد نبه الجاحظ قديما إلى هذه المسألة حين قال: " أما النحو فلا تشغل قلبه [يقصد الصبي] منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أرد إليه منه من رواية المثل والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع. وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه من لا يحتاج إلى تعرّف جسيمات الأمور، والاستنباط لغوامض التدبر، ولمصالح العباد والبلاد، والعلم بالأركان والقطب الذي تدور عليه

يفهم الطلبة، حيث تبرمج كل زاوية أو محاضرة أو مدرسة قرآنية على طلبتها بعض المتون النحوية، مثل الأجرومية، ولامية الأفعال، والألفية، وملحة الإعراب، وقطر الندى، فبحفظها الطلاب ثم يعرضونها على الشيخ ليشرحها بدوره، ويتوسع في ذلك بتقديم الشواهد والأمثلة، وبعض التفاصيل التي لم يتضمنها المتن، وقد يذكر الخلاف النحوي في بعض المسائل إذا تدرج الطلبة في علم النحو.

وقد كان الشيوخ الذين يدرّسون في هذا الزوايا والمدارس القرآنية يوثقون دروسهم في شكل شروح منظمة مخطوطة باليد أو مطبوعة بعد أن ظهرت الطباعة الحديثة وانتشرت، ومنهم من نشر هذه الشروح، ليستفيد منها طلبة العلم، وقد يضعون على الشروح حواشي، لإيضاح بعض عباراتها ومسائلها الغامضة، أو لإكمال ما فيها من نقص في الحقائق والشروط التي لم يستوفها الشرح. وتُتبع الحواشي أحيانا بـ (التقارير)، وهي تعليقات على الحواشي لإبداء ملاحظات أو إتمام نقص.

ولهذا النظام في التعليم فوائد جمة من ناحية التدرج في التحصيل العلمي، فالمتعلم يدرس أولا المتن ويتفهم ما تضمنه من حائق موجزة، ثم ينتقل إلى الشرح وهو أوسع وأوفى، ثم يرتقي إلى الحاشية والتقارير ليستوفي ما فيها من تمحيصات وزيادات ليست في الشرح، وإلى جانب هذا كان حفظ المتن عن ظهر قلب عوناً على الإلمام بالحقائق العلمية وسهولة استحضارها.⁽¹⁷⁾

وقد كان طلبة العلم في بلاد المغرب العربي قديماً حين يحصلون المعارف الأساسية في الزوايا والمدارس القرآنية والمحاضر يواصلون تعليمهم العالي في جامعة القرويين وجامعة الزيتونة، اللتان استقطبتا العديد من طلبة العلم في هذه البلاد وغيرها، بفضل جودة برامجها التعليمية وكفاءة أساتذتها في شتى العلوم، وكان طريقة تعليم النحو فيها لا تختلف كثيراً عن تلك التي تعود عليها الطلبة في الزوايا، حيث تعتمد هذه الطريقة على حفظ متون بعينها، تتناسب وقدرات الطلبة في هذه المرحلة، مثل المقدمة الأجرومية التي " كانت تدرس في السنة الأولى، ثم تدرس المقدمة الأزهرية في الثانية ثم قطر الندى في الثالثة، ثم ألفية ابن مالك في الرابعة".⁽¹⁸⁾

فالحفظ إذن كان من سمات المنهج التعليمي عند المغاربة عموماً، بل إنهم تفوقوا فيه على إخوانهم المشاركة، يقول أبو القاسم سعد الله: " كانت ملكة الحفظ متوفرة وقوية حقاً، فأهل المغرب والعرب عموماً كانوا يمتازون بالحفظ وكثير منهم كانوا يحفظون القصيدة أو القطعة ونحوها من سماعها الأول".⁽¹⁹⁾

وفي الجزائر نجد أن علماءها وبعض طلبتها عرفوا " بحفظ متون النحو وبعض الشروح، وإدراك مسائلها عن ظهر قلب، حتى أصبحوا لا يعانون في ذلك رهقا ولا مشقة، فهذا ابن مريم يخبر عن محمد الحاج المناوي (ت 955 هـ) أنه كان يقول: (ألفية ابن مالك عندنا كخبر الجلوس) فهي عندهم محفوظة معروفة يتحدثون بها في المجالس ويتنادرون، لذلك طلب المناوي من تلاميذه أن يكون اهتمامهم بما هو أرفع من ذلك، لأن المعلومات التي يمنحها لهم في النحو إنما جاءت نتيجة جهود أخرى مضيئة ومطالعات مستقصية".⁽²⁰⁾

ولهذا لا يمكننا أن ننكر فضل طريقة الحفظ في التعليم، فهي مفتاح لإدراك العلوم وخبزها في الأذهان ومن ثم استحضارها عند الحاجة، يقول الإمام الشافعي رحمه الله:⁽²¹⁾

علمي معي حيث ما يمتت ينفعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وعن أشهر طرائق تعليم النحو وغيره من العلوم في الجزائر قديماً يحدثنا أبو القاسم سعد الله قائلاً: " كانت ميزة الدروس هي الشرح والإملاء، فقد كان لكل مدرس مسمع يقرأ له النص أو جزءاً من الكتاب المدرس، ثم يأخذ المدرس في شرح المسألة وتوضيحها والاستشهاد لها من محفوظه ومعقوله، أو من المنقول والمعقول، وقد لا ينهي المدرس المسألة في نفس الجلسة، فإن ميزة المدرس الناجح هي الخوض في الجزئية الواحدة عدة مرات ومن عدة وجوه، وكلما أطل المدرس في المسألة وأفاض فيها كلما كان ذلك من ميزات نجاحه، وهو يختم درسه في العادة بإملاء خلاصات على الطلاب فينسخونها بحذق وعناية كما أن الطلاب أنفسهم يسجلون الدرس كله إذا كان المدرس واسع العلم غير متقيد بالمنقول والمسموع من المسائل".⁽²²⁾

وفي الختام نخلص إلى أن المنهج التيسيري في النحو قد كان من سمات المدرسة المغربية تأليفاً وتعليماً، وإن المتأمل في المستوى العالي من التحكم في اللغة العربية ونحوها وصرفها الذي بلغه طلابها وعلماءها يدرك أن العيب لم يكن أبداً في النحو، ولم تكن الصعوبة سمة مصاحبة له، بل العيب دائماً في الطريقة التي يقدم بها النحو إلى متعلميه، وذلك ما اهتدى إليه علماء المدرسة المغربية فتوجهوا من البداية إلى تيسير تعليم النحو لا تيسير النحو.



- 1 - صالح بلعيد، في أصول النحو، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص 164.
- 2 - خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل، إربد-الأردن، ط 03، 2001، ص 360.
- 3 - انظر: عبد الأمير محمد أمين الورد، المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير، المكتبة العصرية، بغداد، ط 01، 1997، ص 09 وما بعدها.
- 4 - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، ج: 01، ص 35.
- 5 - الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 02، 1965، ج 01، ص 91.
- 6 - انظر: عبد الكريم الأسعد، الشعر التعليمي، مقالات منتخبة في علوم اللغة العربية، دار المعراج الدولية، الرياض، ط 01، 1415 هـ، ص 408.
- 7 - انظر: المرجع نفسه، ص 412.
- 8 - ممدوح عبد الرحمن، المنظومة النحوية دراسة تحليلية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 200، ص 265.
- 9 - المختار ولد اباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 02، 2008، ص 379.
- 10 - المرجع نفسه، ص 380.
- 11 - نعمان بوقرة، تيسير النحو: قراءات تمهيدية في تيسير التعليم النحوي عند المغاربة والأندلس، أعمال ندوة تيسير النحو المنعقدة في 23، 24 أبريل 2001 بالمكتبة الوطنية، ص 157.
- 12 - انظر: عبد القادر بقادر، الأجرومية بين النظم والشرح في الجزائر (دراسة في الأعلام وأنماط التأليف)، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، ع: 23، ديسمبر 2015، ص 169.
- 13 - المرجع نفسه، ص 170.
- 14 - الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط 01، 1991، ج 03، ص 38.
- 15 - شوقي ضيف، محاولات تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، الموسم الثقافي الثاني لمجمع اللغة العربية الأردني، ط 01، 1984، ص 44.
- 16 - المختار ولد اباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، ص 403.
- 17 - عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، دار النهضة العربية، بيروت، دط، دت، ص 199.

- 18 - نعمان بوقرة، تيسير النحو: قراءات تمهيدية في تيسير التعليم النحوي عند المغاربة والأندلس، ص 158.
- 19 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 01، 1998، ج: 01، ص 346.
- 20 - المرجع نفسه، ج: 02، ص 158.
- 21 - محمد إبراهيم سليم، ديوان الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص 112.
- 22 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 01، ص 345.